أمارابك: مجلة علمية محكمة تصدر عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا www.amarabac.com
المجلد الثاني، العدد الثالث (٢٠١١). ص ص٤٥-٦٠

المرَأةُ العاشقة فِي الشعر الأموي

د.محمد دوابشة (*)

الملخص: *يعالج هذا البحث قضية عاطفية إنسانية – كانت وما زالت – بين مد وجزر؛ بسبب عادات المجتمع وتقاليده، إنها قضية عشق المرأة للرجل، وتغزلها فيه، والكشف عن عواطفها بكل جرأة ووضوح في الشعر الأموي، وقد عالج البحث بعض التجارب الأموي، وأهمها تجربة ليلى الأخيلية التي كشفت عن طبيعة تجربتها العاطفية وغايتها وفلسفتها، ثم عرج البحث على نماذج لشاعرات امتلكن الحرية في التعبير عما كان يدور في أذهانهن حول موضوع العشق الأنثوي للرجل في ذلك العصر، كما أظهر البحث أن الحياة الاجتماعية التي سادت عصر بني أمية هي التي منحت المرأة القوة للبوح عاطفيا بما تشعر به. وقد وقف الباحث في بحثه على استنطاق الأشعار والأقوال التي تنتمي إلى الفترة التي تشملها الدراسة " العصر الأموي "، متبعا المنهج الوصفي التحليلي، كونه أقرب المناهج إلى دراسة هذا الموضوع.*

The Loving Woman in the Umayyad Poetry

Mohammad Dawabsha

Abstract: *The present research is treating a human-emotional issue -that was and still- between tide and descend; due to the habits of society and its traditions, it is the loving issue of women for man, and dexterities him, and disclosing her emotions clearly and bravely in Umayyad poetry,and treated Find some experiments the Umayyad, the most important experience of Laylah Al Akhyaliyyah which revealed the nature of the experience emotional and purpose and philosophy, and then went searching models for poets they have power and freedom to express what was going on in their minds on the subject of love female to men in that at that time , as research has shown that Social life that prevailed in the of the Umayyad that granted women the power to reveal what she feels emotionally.The researcher in his study stood on discoursing poetry and those sayings that belong to the period the study includes* ***"the Umayyad Period",*** *following the analytical descriptive method, for its being the nearest among methods to study the subject.*

(*) *أستاذ الأدب الأموي المشارك*، كلية العلوم والآداب، الجامعة العربية الأمريكية، فلسطين، mdawabsheh@aauj.edu

مقدمة:

كانت المرأة في تاريخ الثقافات البشرية موضع جدل وخلاف؛ لأنها كانت في التصور القديم، الأقل أهمية،من خلال ثنائية الرجل والمرأة على المستويين الإنتاجي والثقافي، وبذلك جاءت قضاياها أكثر تعقيداً؛ لأنها كانت موءودة معنوياً وجسدياً؛ فهي لم تحيَ بنفسها ولا لنفسها، إنها للزوج وبالزوج، فقد نظرت بعينيه، وسمعت بأذنيه، وعاشت بإرادته في مجتمعات بدائية قديمة، خيم عليها ظلام العبودية، وقد مورس وأد المرأة معنوياً، كما مارس بعض الأجداد وأدها جسدياً.

ويمكن من خلال مفردات العلاقة- الحب والهوى والعشق والجمال والجنس - بين الرجل والمرأة، توصيف أبعاد العلاقة التي تنشأ بينهما، وهي مفردات تختلف مفاهيمها، بمفاهيم المجتمعات وثقافاتها التي نشأت فيها ومن خلالها، ومن الصعب أن نعرف هذه المفردات تعريفاً جامعاً مانعاً، وبخاصة الجنس؛ لأنه" من المضامين الأدبية الحساسة والشائكة التي أثارت جدلاً واسعاً وخلافاً عميقاً، يطول في الأدب، فلم يكن من الممكن تناوله دون حساسيات اجتماعية وتاريخية ونفسية، تتراوح بين الحرية التامة والتحريم المطلق، تبعاً لنوعية المرحلة الحضارية وروح العصر" (راغب،١٩٨٨: ٥١).

أحيطت المرأة في القديم بنوع من القداسة؛ لأن دور الرجل في الخصوبة كان مجهولاً، فكان ينظر لها على أنها سر الوجود، وخالقة الحياة، والمجددة لها، ولهذا كان من الطبيعي أن تُعبد، وأن يُنسب لها، وأن تتشكل المجتمعات الأولى " الأمومية " التي يتم فيها الميراث عن طريق الأم، فالنساء كن يبدون وكأنهن مصدر الخصب والحياة، وكانت الآلهة الكبرى عند الشعوب الزراعية- أي ربات الأرض- هن اللواتي يحيين الأرض بعد موتها، فتزهو وتثمر، وقد اتخذ القدماء من بلاد ما بين النهرين "عشتار"، واتخذ المصريون القدماء إيزيس (بدوي،١٩٧٨: ٧٣). وجعلت معظم الشعوب للآلهة التي يعبدونها مسميات أنثوية،كما كان الأمر في مصر وبلاد الرافدين (نصر،١٩٧٨: ١٢٤)،وهذا ما عبرت عنه الفيلسوفة الفرنسية سيمون دي بوفوار في قولها" إن المرأة ليس لها جوهر أو طبيعة أبدية، بل التاريخ والمجتمع الذي تعيش فيه يرسم لها، في كل حقبة التجويف من أجل قالب تتقيد به" (بوفوار، ١٠٨٢: ٥٧).

وتتردد كلمات الهوى والعشق والحب والجمال كثيراً في الشعر العربي، وتختلف معاني هذه الكلمات لغةً، لكن مضمونها يكاد يكون متداخلا وواحداً، فيما ترمي إليه، وكلها تدور حول المرأة وما يتعلق بها، ولا يختلف اثنان أن المرأة كالرجل، تحب وتعشق وتتمنى، فكيف إذا كانت شاعرة، فلا شك أن عاطفتها ستكون شعراً تزجيه العاطفة، ولكن الفرق بينها وبين الرجل، كما يزعم الجاحظ، أنها قادرة على كتمان الهوى، بينما الرجل لا يملك ذلك " المرأة تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك، وتبغض يوماً واحداً، فيظهر ذلك بوجهها ولسانها، والرجل يبغض أربعين سنة، فيقوى على كتمان ذلك، وإن أحب يوماً واحداً شهدت جوارحه(الجاحظ،١٩٩١: ١٧٩).

تمهيد: (مفردات العشق)

اختلف في أهمية كل من العشق والهوى والحب، فقيل إن الهوى أول، وهو أعم؛ لوقوعه على كل ما يهواه الإنسان، وثانيه الحب، وهو أخص، وأقصاه العشق، قال أبو عبادة:

فاليومَ جازَ بِي الهوَى مقداره في أهلهِ وعلمتُ أنّي عاشقُ (الرفاء، د.ت:٢/٤)

وقيل العشق من فعل النفس، والنفس كامنة في الدماغ والقلب والكبد، وفي الدماغ ثلاثة أماكن، التخييل والفكر والذكر، ولا يسمى الشخص عاشقا، إلا إذا فارق من يعشقه،ثم لم يخل من تخييله وفكره وذكره وعقله وقلبه، فيمتنع المحب عن الطعام والشراب باشتغال الكبد، ومن النوم باشتغال الدماغ والتخييل والذكر له والفكر فيه، فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به (الأصبهاني، ١٩٨٥: ٨٥/١) وهذا موافقٌ لما قاله الشاعر:

الحـــــبُ أولهُ روعٌ وآخرهُ مثلُ الحرارةِ بينَ القلبِ والكبدِ(الأصبهاني، ١٩٨٥:١/٦٥)

ويقال أيضا إن العشق ملك قاهر، مسالكه لطيفة ومذاهبه غامضة وأحكامه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراؤها، وأعطى عنان خاعتها، وقوى تصرفها، وهو بهذا أشبه بقوى خفية، لا يوقف على كنه، ويدق على العقول إدراكه (المغربي، د.ت: ١٢)، وهو في هذا المعنى قريب من قول الشاعر:

ونارُ الهوَى تخفى وفِي القلبِ فعلها كفعلِ الذي جادَت بِه كفُّ قادحِ(القالي،١٩٩٦: ٢/١٧٢)

يعرف العشق بآثاره، حيث يعظم سلطانه على القلب، ثم يتغشى على سائر الأعضاء، فيبدى الرعدة في الأخراف، والصفرة في الأبدان، واللجلجة في الكلام، والضعف في الرأي، ويسقم النفس، وقد يفضي إلي ذهاب العقل، يجدده مرور الزمن،ولا تفسده ولا تغيره إساءة المحبوب على الدوام، وفي آثار هذا الضرب من العشق يقول قيس بن ذريح:

وللحبِّ آياتٌ تبينُ للفَتَى شحوبٌ وتَبرِي مِن يديهِ الأشاجِعُ(القالي، ١٩٩٦:٢/٣٢١)

ويقول مجنون ليلى:

إنّي جُننتُ فَهاتوا مَن جُننتُ بِهِ إنْ كَانَ ينفِي جنونِي لا تَلومونِي(المغربي، د.ت:١٢)

فالعاشق مغلوب على أمره، مسلوب الإرادة في هواه وفعله، وكم من العاشقين حاولوا أن يصرفوا قلوبهم عن عشقها، وحملها على السلوان؛ ليتخلصوا من عذابات الوجد ومرارة الحرمان، ولكن هيهات!! فقد فقدوا سيطرة عقولهم وإرادتهم على قلوبهم، حاول مجنون ليلى فأخفق، قيل: اجتمعن عليه نساء أشفقن عليه مما به، وقلن له: أما لك أن تصرف عنك هوى ليلى، ليرد إليك عقلك ؟ فإنها امرأة من النساء، وفينا عنها كفاية، فاختر إحدانا، فقال: لو ملكت لفعلت ولكني مغلوب (الأنطاكي، ١٣٩١: ٦١).

أما الهوى فهو من زوال الشيء عن موضعه، والحب ملازمة المكان ثم الانبعاث،جاء في لسان العرب: هويَ يَهوى هَوىً، إذا أراد الشيء ومالت نفسه إليه،وهَوَى يَهوِي هَوِياً سقط وهوى الأرض: ذهب فيها، وكلها معانٍ تدل على الحركة والانتقال من مكان إلى آخر، قال الشاعر:

مُحبٌّ كإحبابِ البَحير وإنّما بِهِ أسَفٌ أنْ لا يرَى من يُصاولُهْ(لسان العرب: هوي)

والعشق إنما هو من العَشَقَة، وهي اللبلابة، كأن العاشق سُمي بذلك لذبوله، قال رؤبة:

ولم يَضعها بين فِركٍ وعَشْقٍ فَعفّ عَن أسرارها بَعد الغَسَقِ(ديوانه:١٠٨)

وجعل كثير الحب أشد من الهوى والعشق، قال كثير:

وَحُبكِ يُنَسّينِي مِن الشّيء فِي يَدِي وَيُذهِلُنِي عَن كُلّ شَيءٍ أُزَاوِلُهْ (ديوانه:٢٤٧)

أما الغزل فهو التقرب إلى النساء والتودد إليهن، يقول الزجاجي في المخصص " أصل المغازلة الإدارة والفتل؛ لإدارته عن أمر، ومنه سمي الغزل؛ لاستدارته وسرعة دورانه، وبه سمي الغزّال لسرعة عدوه، وسميت الشمس الغزالة؛لاستدارتها وسرعتها (ابن سيدة،٤٥)، ومنهم من جعل الحب أقوى وأشد؛ يقول عبيد الله بن عتيبة بن مسعود:

تَأثرَ حُب عَتمةَ مِن فُؤادِي فَباديه مَع الخَافي يسيرُ
تَــغلغلَ حيثُ لم يبلغ شرابٌ ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ. (الرّقاء، د.ت:٢/٦)

وقالوا: إنه لو لم يكن في الهوى إلا أنه يشجع الجبان ويصفي الأذهان ويبعث حزم العاجز لكفاه شرفاً، واتهموا من لم يحب بأشنع التهم وألصقوا به أشنع الأوصاف: فهو رديء التركيب، جافي الطبع، كز المعاخف، وقالوا: لا يسلم أحد من العشق إلا الجلف الجافي الذي ليس فيه فضل ولا عنده فهم، فأما من خبعه أدنى ظرف أو معه دماثة أهل الحجاز فهيهات(الألوسي، د.ت:٢/١٤٢).

ولا يعنينا في هذا البحث أن نفضل نوعا على آخر، بقدر ما يعنينا موقف المرأة في العصر الأموي من هذه الكلمات المرتبطة بعاخفتها الخاصة تجاه الرجل، أو تأثير هذه الكلمات بصاحبتها، كقول الشاعر:

الحُبّ يتركُ مَن أحبَّ مُــدَلّــهاً حَيرانَ أَو يَقضِي عَليهِ فَيسرِعُ
الحُبّ أهونُــهُ شَــديــدٌ فَــادحٌ يهِن القويّ من الرجالِ فيصرَعُ
مَن كَانَ ذَا حَزمٍ وَعزمٍ في الهَوى وَشَجاعةٍ فَالــحُبُّ منهُ أَشجعُ(الأصبهاني،١٩٨٥: ١/٦٣-٦٤)

عاطفة المرأة وحريتها في العصر الأموي

اختلفت الظروف الاجتماعية في العصر الأموي عنها في العصرين السابقين،وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة وحريتها، إذ لم تكن المرأة الأموية محتجبة في منزلها، بل كانت حرة خليقة، تنتقل وترحل وتشارك الرجل في كثير من أعماله، فكانت ترعى الغنم وتملؤ الماء وتحج إلى بيت الله الحرام، وتذهب إلى السوق وترتاد أسواق الأدب؛ لتسمع وتنشد ما تريد، وكانت في هذه المرحلة تلقى الرجل ويلقاها، وفي الرجل عاخفة وحساسية، وفي المرأة رقة ونعومة وأنوثة، وهنا تلتقي العواخف وتهتز القلوب، ولا بد أن يحمل الشعر نجوى هذه العواخف وهزات القلوب، فمجنون بني عامر أحب ليلى، وهما صغيران يرعيان الغنم، يقول:

صَغيرين نَرعَى البُهمَ يَا لَيتَ أَنّنا إلى اليومِ لم نكبرْ ولم تكبرْ البهمُ (ديوانه:١٦٤)

ونظرة واحدة من ذي الرمة إلى مية على نبع ماء كانت كفيلة بوقوعه في حبها، يقول:

وقفتُ عَلى ربعِ لميةَ نَاقَتي فَمَا زلتُ أبكي عندهُ وَأخاطبُهْ
وأسقيهِ حتّى كادَ ممّا أبثُّهُ تُكلّمنِي أحجارُهُ وَمَلاعِبُهْ (ديوانه،١٩٩٣: ٨٢١)

عبرت المرأة في العصر الأموي عن نفسها في العديد من المجالات الخطرة، وقد أصابت ضرباً من الحرية تحت تأثير الحياة الاجتماعية الحديثة، كما أخذت تقبل على الرجل بأكثر مما كانت تقبل عليه المرأة الجاهلية، ورأت في الحجاب- أحيانا- قيداً لا يتناسب مع حريتها الاجتماعية، ولهذا

راحت تخفف من شأنها فيه، شأن الأجنبية البعيدة عن عادات المجتمع العربي وتقاليده؛ يقول عمر بن أبي ربيعة:

سَوافر قَد زَانهنّ العَبيرُ مَع المِسْكِ مغتنماتِ الطِّفل(الديوان: ٣٧٣)

وهذا ما قالته سكينة بنت الحسين لزوجها مصعب، عندما كلمها في أمر سفورها، أجابته قائلة " إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال، أحببت أن يراه الناس، ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنت لأستره، (الأصفهاني،١٩٩٧ :١٧٦/١١)، هكذا كان موقف المرأة العربية في هذه العصر، الذي تعرض فيه المجتمع العربي لهزة اجتماعية عنيفة، صراع قوي بين القديم والجديد؛ فهي مرة تأخذ بالقديم، وأخرى تلهث للأخذ بالجديد، كما يقول عمر بن أبي ربيعة:

يَطُفنَ بها مثلَ الدَّمَى بين سَافرٍ إلينَا وَمُستحِي رَآنا فَصارفِ (الديوان:٣٩٧)

والمرأة لها عواخفها، ولها رغباتها" وخبيعي أن أي مجتمع- مهما تكن صرامة تقاليده- لا يستطيع أن يلغي من نفوس البشر عواخفهم، أو يمنع التيار العاخفي الجاري في عروقهم من الجريان" (خليف، ١٩٦١ :٩٩)، ولم تجد المرأة- في ظل قيمها وتقاليدها الحضارية الجديدة- حرجاً في ارتداء الثياب التي تشف عن مفاتن جسدها، يقول عمر ابن أبي ربيعة:

قَد هَاجَ حُزْني، وَعادني ذِكري يَومَ التقينا عَشِيّةَ النفَر
بالفجّ من نحوِ دار عقبة، وال حج سريع الطواف والصدر
كَأن ثوباً لمّا التقى الرَّكب تُد نيهِ عَليها يشفُّ عن قمرِ (الديوان:١٤٥)

لذا كان تمسكها الشديد وارتباخها القوي بهذه القيم والتقاليد التي كانت تفرض سلطانها على المجتمع القبلي، وتأخذ فيه شكل المقدسات التي لا يمكن التحلل منها " وكان الشرف أحد هذه التقاليد المقدسة" (خليف، ١٩٦١ :٩٧)؛ لأن العربي كان ينظر إلى المرأة على أنها حرمة من الحرمات، عليه واجب المحافظة عليها والدفاع عنها، فالمرأة العربية في العصر الأموي، شاركت في الحياة العامة، وسنجد وصف إحداهن بأنها " برزة " - أي لا تحتجب عن الرجال، أو لا تضع خماراً على وجهها - تتكرر في أكثر من موقع في كتب الأدب، وقد كانت النساء هن اللاتي يشجعن الشعراء على القول فيهن، ويتذاكرن هذا الشعر، ويشجعن المغنين والقيان على وضع الألحان فيه، فلم يبق أحد بعيداً عن الحب وشعر الغزل، حتى الفقهاء والقراء، مثل عروة بن أذينة، وعبد الرحمن بن عمار المعروف بالقس (الأصفهاني، ١٩٩٧ :٤/ ٢٤٦).

روى الزبير بن بكار عن مصعب الزبيري عن عبد الرحمن بن أبي الحسن:" خرج أبو حازم يرمي الجمار ومعه قوم متعبدون، وهو يكلمهم ويحدثهم ويقص عليهم، فبينما هو يمشي وهم معه، إذ نظر إلى فتاة مستترة بخمارها، ترمي الناس بطرفها يمنة ويسرة، وقد شغلت الناس، وهم ينظرون إليها مبهوتين، وقد خبط بعضهم بعضاً في الطريق، فرآها أبو حازم، فقال: يا هذه اتق الله فإنك في مشعر من مشاعر الله العظيم، وقد فتنت الناس، فاضربي بخمارك على جبينك، فإن الله عز وجل يقول: " وليضربن بخمرهن على جيوبهن "، فأقبلت تضحك من كلامه وقالت إني والله:

من اللاءِ لا يَحجُبْنَ يبغينَ حِسبةً ولَكِن ليقتلنَ البريءَ المُغفَّلا(ديوانة،١٩٥٦: ٧٤)

وربما الذي أعطى المرأة العربية هذه الحرية في العصر الأموي كثرة الأجنبيات الوافدات، وما نتج عنه من اختلاط وتزاوج، مما شجع المرأة الأموية على إظهار هذه الحرية؛ لأنها شعرت بالمنافسة أمام المرأة التي تظهر مفاتنها وجمالها أمام الرجال، وهذا الأمر يقبله بل ويسعى إليه الرجل.

فقد كان من بين هؤلاء الإماء عدد غير قليل من ذوات الجمال الفاتن، الذي يشد إليه العيون التي تتذوق الجمال،من شباب حضر الحجاز الفارغين المترفين، والأَمَة-كما هو معروف- لا تتحرى الصون والعفة والاحتشام -غالبا- وإنما هي، كما يقول الجاحظ: " لا تكاد تخالص في عشقها، ولا تناصح في ودها؛لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبال والشرك...فإذا شاهدها المشاهد،رامته باللحظ،وداعبته بالتبسم وغازلته في أشعار الغناء،ولهجت باقتراحاته ونشطت للشرب عند شربه وأظهرت الشوق إلى دخول مكثه والصبابة لسرعة عودته "(الجاحظ،١٩٦٤: ١٧١/٢).

كما إن الأمة، بحكم تبذلها، وقيامها على أمر سادتها، وتخلف مكانتها الاجتماعية، عرضة لما يفتنها عن نفسها، ويخدعها في شرفها، فتنقلب مع دخول التجارب، مفتونة فاتنة، مخدوعة خادعة، فاسدة العفة، مفسدة للأخلاق، وفي هذا يقول الجاحظ: " وكيف تسلم القينة من الفتنة، أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي تنشأ على ما يصد عن ذكر الله، من لهو الحديث، وصنوف اللعب والأخانيث، وبين الخلعاء، والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين، ولا صيانة مروءة (الجاحظ، ١٩٦٤: ١٧٦/٢).

بذلك تحولت مدن الحجاز " إلى ما يشبه المسرح الكبير، فالمغنون والمغنيات، ما يزالون يضربون في الصباح والمساء على أوتارهم، وهذا الشباب المتعطل من حولهم، فتيات وفتيانا،يجتمع بهم، ويستمع إليهم و يستمع في بعض المنازل حينا، ويستمع في بعض المتنزهات بالضواحي(ضيف،١٩٥٩: ٢٤١) " فقد علمهم الرقيق الفارسي، فيما علمهم، صورة مجالس الغناء، والاجتماع لسماعه(أمين،١٩٣٣: ١٤٤/١).

وينبغي أن ننبه هنا إلى أن هذا المجتمع الذي تحضر،لم يكن ماجنا منحلا، إلى الحد الذي يصوره بعض الرواة، حينما قرؤوا مثل قول العرجي عن بعض ما كان يقابلهن في موسم الحج:

أماطَت رِداءَ الخَزّ عَن حُرّ وجهِهَا وأدنَتْ عَلَى الخدّين بُردا مهلهلا
من اللاءِ لم يحججنَ يبغين حسبةً ولكن ليقتلنَ البرئَ المغفلا(ديوانة: ٧٤)

ففرق بين أن يكون المجتمع حرا، وأن يكون منحلا ماجنا، نعم، نالت المرأة الحجازية الحضرية قسطا غير هين من الحرية في العصر الأموي، لم تحظ به جدتها أو أمها، وكان لمنافسة الأجنبية والجارية والأَمَة، لها في زوجها من الأثر ما جعلها تتخلص من بعض حجابها القديم، فعند الجاحظ أن نساء العرب لم يكن يحجبن عن الرجال، ولا كُنَّ يرضين مع سقوط الحجاب الفلتة، ولا لحظة الخلسة (الجاحظ،١٩٦٤: ١٤٨/٢).

كما أنها لم تجد بأسا من مجالسة الرجل ومحادثته والتسامح في الحديث معه، فتطريه ,أو يطريها، أو ترغب في غزله، إذا كان يسرها أن يشبب بها شاعر - سيما إذا كان مشهورا - " وإن كانت لا ترجو أن تتزوج به، ولكن يسرها ما في التشبيب من الإعجاب.... بجمالها، سواء في ذلك الأميرة والحقيرة " (زيدان،١٩٣٦: ٢٧٧/١)، روى أن أم محمد بنت مروان بن الحكم قدمت على عمر بن أبي ربيعة في الموسم و خلبت إليه أن يشهرها بشعره، وبعثت إليه بألف دينار، فأبى أن يأخذ على التشبيب أجرا واشترى بالجائزة حللا و خيبا، وأهداه إليها(الأصفهاني،١٩٩٧: ٣٥/١)، ويذكر أبو الفرج أن سكينة بنت الحسين، ومعها نساء من شريفات المدينة أرسلن إلى عمر بن ربيعة، وقد تشوقن إلى لقائه، بعد أن تذاكرن حلاوة شعره، وحسن ظرفه، أن يوافيهن في مكان وموعد محددين، فقضى بينهن وقتا خويلا من الليل، ينشدهن ويحادثهن، ثم عاد إلى مكة وقال:

قَالتْ سُكينةُ والدموعُ ذوارفُ منها على الخدين والجلباب
ليت المغيرى الذي لم يجزه فيما أطال تصيدي وطلابي
كانت ترد لنا المنى أيامه إذا لا نلام على هوى وتصابي(ديوانة:٤٣٥)

الأمر إذا ليس تحللا ولا خلاعة، ولا استهتارا بقيم الصون والعفاف، فهؤلاء الشريفات وغيرهن لا يسمح لهن، ولا يسمحن لأنفسهن بشئ من هذا، وإنما رغبت تلك الطائفة من النساء، ذوات المكانة والذوق والثقافة في إن يحققن في أنفسهن شيئا من الشهرة الاجتماعية، في نطاق ما يسمح به مجتمعهن، ولم يكن هناك وسيلة في تحقيق هذه الغاية إلا أن يربطن أسبابهن بأسباب شعراء البيئة الغزلين المشهورين، الذين يلهج الناس بأشعارهم.

دلالة هذا كله أن المرأة الحجازية فيما كانت تتمتع به من حرية في لقاء الرجل أنها لم تنزلق في مهاوي المجون والانحلال الخلقي، كما تصور بعض الرواة (الأصفهاني،١٩٩٧: ٣٥/١) ومن جاراهم، وخدع برواياتهم من الباحثين،ونحن نلتمس صورة المرأة التي تحدث عنها هؤلاء الرواة عند الشعراء الغزلين في حضر الحجاز، فلا نجد مصداقا لما ذهبوا إليه، وإنما نجد امرأة أترف ذوقها، فتطلعت إلى المشاركة في تذوق الحياة الفنية المتاحة في عصرها، امرأة تنفق حياتها في الدعة والنعمة، وتقيم صلتها بالرجل على نوع من الحرية، يحوخه سياج من العفة والطهر، الذي يليق بها، وعريق أصلها ومكين شرفها، ولا يخلو مع ذلك من اللهو البريء، والدعابة الطريفة والظرف المحبب. فقد عبرت المرأة بكل جرأة وصراحة عن موقفها من أكثر القضايا حساسية، تقول أم الورد العجلانية، وقد تزوجها رجل فعجز عنها:

إنْ تَسألوني عَنْه مَا كَان الخبرُ عذبني الشيخُ بأنواع السهرْ
حتّى إذا مَا كانَ في وقتِ السّحر وركبّ المفتاحَ في القفلِ انكسرْ(بشير يموت، ١٩٣٤: ٦٥)

وهذا ما عبرت عنه من قبل - وبشهوة جامحة - أم الضحاك المحاربية في قولها:

فَاءُ الحبَ تقبيلٌ وضمَّ وجرٌ بالبطونِ على البطونِ
ورهزٌ تهملُ العينان منهُ وأخذُ بالمناكبِ والقرونِ (بشير يموت، ١٩٣٤:٦٥)

فهل هناك جرأة عاخفية جنسية - إن جاز لنا التعبير - أكثر من هذه الجرأة، فنرى أن الحرية قد بلغت ذروتها في بعض المواقف، وبخاصة فيما يتعلق بعاخفتها تجاه الرجل، فإذا كان عندنا شك في نسبة هذا الشعر لهذه المرأة أو تلك، فلا يختلف اثنان في نسبة هذا الشعر إلى هذا العصر، لذا فقد عبرت المرأة عن عواخفها الغرائزية والشهوانية - أحيانا- الجامحة، بكل حرية، وربما دافعت عن هذه الحرية وهذه العواخف، مع الأخذ بعين الاعتبار أن وجهات النظر في الرجال مختلفة من امرأة إلى أخرى، تقول رملة بنت كرز بن عمرو بن ربيعة، وكانت تحت كعب بن معاوية، فلما مات خطبت لغيره:

أنّي والبعولةُ بعدَ كعبٍ كَشارِي قرمة بابن المخَاضِ(المرزباني: ١١٩)

وهناك كثير من الأشعار الموجودة في بطون المصادر الأدبية، ولكنني أبتعد عن ذكرها لسوء ألفاظها (بشير يموت ١٩٣٤، ٨٠،١٤٢،١٤٣،١٤٥)؛ ولما فيها من ألفاظ وصور جنسية فاضحة، وما أوردته هنا من أبيات قليلة، هو فقط للاستدلال على الفكرة التي أذهب إليها.

أما ما ذكره عبد الله عفيفي في قوله: " كان من أكبر المآثم عند العرب أن يلتقي الرجل بالفتاة، فيبدؤها بالكلام أو يلقي إليها السلام، وربما هاج ذلك شراً عقاماً".(عفيفي،١٩٢١: ٧٢/١)، أرى أن هذا الأمر يمكن أن يكون في بداية العصر الإسلامي الذي جاء بعد الجاهلية مباشرة، وأراد أن يصون المرأة وأنه لا يتسامح أو يتهاون في أبسط الأمور بالنسبة لعلاقة الرجل بالمرأة، ومنها السلام عليها والشعر فيها، أما العصر الأموي، فهو عصر التناقضات، عصر الفتوحات وعصر التدين والزهد وكذلك عصر الغزل واللهو والغناء والحرية والانفتاح، لظروف عدة وأسباب كثيرة، وهذا ما عبرت عنه ليلى العامرية في صوت داخلي خفي، تقول:

لم يَكُن المجنونُ في حَالةٍ إلا وقد كُنــتُ كما كانَا
لكنــهُ بَاحَ بسرِ الهَوى وإنني قد ذبتُ كتماناً(بشير يموت،١٩٣٤: ١٥٨)

وهي القائلة:

باَح مجنونُ عامرٍ بهواه وكتمتُ الهَوى فمتُ بوجدِي
فإذا كَان في القيامَةِ نودِي من قتيلُ الهوَى تقدمتُ وَحدِي(السابق:١٥٨)

وأرى أن خبيعة العصر الأموي تختلف عن بقية العصور من جوانب عدة، هذا الأمر ساعد على تحررها من بعض قيم المجتمع وتقاليده، لذا رأت المرأة في العصر الأموي في بعض القيم والتقاليد شيئاً يتنافى مع عصرها، وما خرأ على حياتها من تغير، ولهذا أخذت تفكر في الثورة عليها، ولم يقتصر الأمر على مجرد التفكير، بل راحت تعلن الثورة والتمرد، مجاهرة أحياناً ومتسترة أحياناً أخرى.(عودة،١٩٩٠ :٢٢٠)،روي أنه " اجتمع نسوة من أهل الشرف، فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه،فتشوقن إليه وتمنينه، فقالت سكينة بنت الحسين عليهما السلام: أنا لكن به، فأرسلت إليه رسولاً وواعدته الصّورَيْن، وسمت له الليلة والوقت، وواعدت صواحباتها، فوافاهن عمر على راحلته، فحدثهن حتى أضاء الفجر، وحان انصرافهن" (الأصفهاني،١٩٩٧ :١٦٨/١). فالمرأة تلتقي بالرجل بعيداً عن بيتها وتقضي معه ليلها كله، على الرغم من علمها بأن المجتمع يمنع ذلك.

ولم نقرأ في الجاهلية و الإسلام أن امرأة رثت حبيبا أو عاشقا، والعادة أن ترثي أخا أو زوجا أو أبا أو ابنا، ولكن ليلى الأخيلية رثت عشيقها توبة، فقالت فيه:

أَيا عَينُ بَكّي توبةَ بن حُمير بِسَحٍ كفيضِ الجدولِ المتفجِرِ(الديوان:٤٥)

وهي القائلة:

لعَمرُكَ ما الهجرانُ أنْ تشحطَ النّوى ولكنّما الهجرانُ مَا غيَّب القبرُ(السابق:٥٦)

فمثل هذا الرثاء يعد تطورا ملحوظا في الشعر الأموي، أن ترثي المرأة صاحبها، ولا تكتم ذلك، بل راحت تدافع عنه أيضا (ابن قتيبة،١٩٦٦: ٤٤٨/١)،وتتمنى زيارته ولقاءه، ولكن عادات المجتمع وتقاليده هي التي كانت تحول دون ذلك (ابن قتيبة،١٩٦٠ : ١/ ٤٤٩) ولا يكون لها هذا إلا إذا ابتعدت ولو شيئا بسيطا عن تعاليم المجتمع، فاستغلت ظروف خاصة في عصرها، فراحت تعبر عن عواطفها، وبخاصة أن المرأة الأجنبية راحت تزاحمها وتشاركها حريتها وجمالها وربما في زوجها.

موقف المرأة من العشق في العصر الأموي:

لا يمكن أن نصف العصر الأموي بأنه عصر حب وعشق وهوى خالص، ولا يمكن أيضا أن نقول إنه عصر جمود عاطفي، ولكني أراه عصر بناء وثراء وعصر عواطف إنسانية وهذا ما عبر عنه الحجاج عن زوجاته فقال: عندي أربع نسوة، هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، وأم الجُلاس بنت عبد الرحمن بن أسيد، وأمة الله بنت عبد الرحمن بن جرير بن عبد الملك البَجَلي، فأما ليلتي عند هند بنت المهلب، فليلة فتى بين فتيان، يلعب ويلعبون، وأما ليلتي عند هند بنت أسماء، فليلة ملك بين الملوك، وأما ليلتي عند أم الجلاس، فليلة أعرابي مع أعراب في حديثهم وأشعارهم، وأما ليلتي عند أمة الله فليلة عالم بين العلماء والفقهاء(ابن عبد ربه،١٩٤٦: ٦/١٠٤-١٠٥)، ومن يقرأ بعض كتب التاريخ والأدب عن الحجاج ويقف على الحياة العامة المعلنة له، يرى أن هذا الحاكم لم يكن له من عمل غير العسف بالناس والمكر بالخصوم والقتل، وغيرها من الأمور التي هي أبعد ما تكون عن الاستمتاع بالحياة الخاصة بين النساء، ولكن مثل هذا القول- الذي أسند إليه- يكشف عن تكامل المواهب وتراسل القدرات في الشخصية الإنسانية، وهو الأقرب للطبائع البشرية المعبرة عن عصرها: عصر القوة، وعصر الحب في الوقت نفسه (عبد الله،١٩٨٧: ١٥٦).

كثر حديث المرأة عن الحب في أدب العصر الأموي، بأن عبرت عن مشاعرها بحرية وجرأة، وأبرز من مثل المرأة العاشقة بعاطفة أنثوية عاشقة، ليلى الأخيلية، فقد رسمت لتوبه أكثر من صورة، وليلى الأخيلية إحدى شاعرات العصر الأموي، وتأتي في مقدمتهن، ولا ينكر أحد قوة هذه المرأة وجرأتها على القول، فقد حببت عبد الملك بن مروان، وقد تقدمت بها السن والتجربة، حين سألها: ما رأى فيك توبة حين هويك؟ قالت: ما رآه الناس فيك حين ولوك! وقد اضطر عبد الملك إلى الحل الوحيد الممكن تجاه هذه المرأة المسنة، فقد ضحك، حتى بدت له سنّ سوداء كان يخفيها (ابن قتيبة:١/٤٤٥)، وقالت في هذا المعنى:

وذي حَاجَةٍ قُلنا لَهُ لا تَبُح بها ... فَليسَ إليها مَا حَيِيْتُ سَبيلُ
لَنا صاحبٌ لا يَنبغي أن تَخونَهُ ... وأنتَ لأخرى فَارغٌ وحليلُ
تَخالُك تَهوى غيرَها فكأنّها ... لها من تظنيها عَليك دليلُ(الديوان:٧٤-٧٥)

وقالت أيضاً:

كِلانا مُظهرٌ للناسِ بُغضاً ... وَكلٌّ عندَ صَاحبِه مَكينُ
تبلغنا العيونُ بما أردنا ... وفي القلبين ثّم هوىً دفينُ
وأسرار اللواحظِ ليسَ تخفى ... وقد تغري بذي الخطاءِ الظنونُ
وكيفَ يفوت هذا الناسِ شيءٌ ... ومَا في الناسِ تُظهِرُهُ العيونُ(بشير يموت، ١٩٣٤:١٥٩)

لقد برزت أسماء سيدات قرشيات، في مقدمتهن سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، فكانت حياتهن أشبه بالقصص، لما فيها من إثارة وغرائب، ويلحق بهن عدد آخر يحاول أن يقلدهن فيما يتمتعن به من شهرة، ومن اتصال بالحياة العامة، مثل هند بنت أسماء وهند بنت النعمان بن بشير وفاطمة بنت الأشعث الكندية وميسون الكلبية وأم الجراح العدوية وأم الحكيم وأم البرذون الصفرية وغيرهن (الدوري،٢٠٠١: ٢١٨)، اللاتي كن موضوعاً لغزليات عمر بن أبي ربيعة، فحقق بهن التناغم بين الشاعر وعصره، على أن أصداء هذه الحياة الاجتماعية لم تكن حبيسة القصور المترفة، فقد شاع ذكرها وتردد صداها.

إن مفردات الجمال والحب والجنس مندمجة معاً في الجسد على نحو تنتج فيه المرأة إنتاجا سلعياً في حياة الرجل الذي يحتاج إلى الحب والجنس والتمتع بالجمال، وأحياناً تندمج المفردات بعضها

مع بعض؛ لإنتاج الجنس فحسب، حيث يكون الجنس هو الحب في حالة التنفيذ، والجمال بالنسبة للرجل، هو قضاء الشهوة التي يراها، يقول مهدي عبيد: سؤال وجهته إلى عشرين رجلاً متزوجاً هو: هل تستطيع ممارسة الجنس مع أي امرأة جميلة ؟ كان رد الجميع: نعم، وبكل خيبة خاخر، وأحياناً مع امرأة غير جميلة، ولكنها مثيرة " (عبيد،١٩٨٢: ١٩٤).

ويمثل الجمال من جهة ثالثة صياغة للكون وجمالياته المتعددة، وفيه تكون المرأة أجمل صور الكون ومحور تجلياته، حيث فسرت مقولة ابن عربي " إن لكل جمال جلاله " بأن الشخص الذي نهواه ونعشقه له سطوته ومهابته، بل قدسيته... إن الواحد منا عندما يرى المرأة الجميلة المشتهاة، يشعر كما لو أنه آدم يخرج من الفردوس بشهوة بكر خازجة (حرب،١٩٩٣: ٢٧١)، فإن احتوى هذا التفسير على مركزية المرأة للجمال، فإنه تفسير يرى المرأة جسداً مثيراً وجمالاً منفعياً، ولا يعني كون المرأة للنفس الكلية إنها قيمة إيجابية لذاتها في حياة الذكور المتصوفين؛ لأنها تغدو جمالية معذبة بالطريقة المازوخية في أحيان كثيرة، ثم إن الغاية النهائية في وعي الذكورة الأبوية (البطريركية) من جمال المرأة، هو تحققها جسدها؛ لإحالة الجسد إلى علاقة المتعة، ولا مانع في هذه الإحالات أن تكون اللغة العاخفية، وهذا ما ذهب إليه جورج خرابيشي، وهو يجد مجتمعنا العربي المعاصر من خلال رواياته يفتك به داءان اثنان:التخلف الحضاري والعبودية النسوية، إذ يغدو الرجل مجرد سيف ذكوري (قضيب) والمرأة مجرد فرج (خربيشي، ١٩٧٧: ١٢).

ومفردات العاخفة المترادفة كثيرة مثل: الحب والصبابة والهوى والعلاقة والجوى والخلة والكلف والعشق والشغف والهيام والوجد والشوق والتباريح واللوعة والفتون والجنون والود والغرام (الزرعي، د.ت: ٤٦٣).

وجاء في روضة المحبين عن المحبة أنها شجرة في القلب، عروقها الذل للمحبوب والحب مبني على الذل ولا يأنف العزيز الذي لا يذل لشيء من ذلّه لمحبوبه، ولا يعده نقصاً ولا عيباً، بل كثير منهم يعد ذله عزاً "، ويورد:

مساكينُ أهلُ الحُبّ حَتّى قبورَهم عَلَيها ترابُ الذلِ دونَ المقابرِ(الزرعي، د.ت:٣٩٠)

والحب والعشق مقترنان بالجنس من جانب أو من آخر، بل ربما تكون هذه الظاهرة العامة، فالجمال يولد الحب والعشق ومن ثم الوصول إلى الجنس،وهذا الأمر بحاجة إلى نوع من الحرية، وربما الجرأة في الحرية، وهل هناك أكثر جرأة وصراحة من قول إحداهنَّ:

وقد حلفتُ باللهِ لا أُحبهُ إنْ قصرَت خِصياهُ وقصر...(لسان العرب:مادة زَبَب)

فهل العشق ممنوع على المرأة العربية، وهل الحب والعشق ثقافة ؟ والنزعات الفطرية المتناقضة التي تكوّن ما يسمى " الحب وما له صلة به "، تتم السيطرة عليها حتى تتحول إلى سلوك مستو، وما لم يكن السلوك في الحب مستوياً، فإن المحب والعاشق لا يكون إنساناً مثقفاً، فهناك تفاوت بين الأفراد من حيث درجة ثقافتهم فيه، كما أن المجتمعات المختلفة متفاوتة أيضاً فيما تعده ثقافة جيدة في أمور الحب وصلاته، ولا يوجد دارس للأدب العربي، إلا ويذكر بيتي الأميرة الأندلسية ولاَّدة:

أنا واللهِ أصلحُ للمعالي وأَمشي مِشْيتي وأَتيهُ تيها
أمكّنُ عاشِقي من صَحنِ خَدي وأُعطي قُبلتي مَن يشتهيها(السيوطي، د.ت:١٠١)

بل إننا نجد الشاعرات الأديبات في عصور القوة والازدهار، يجمعن إلى الذكاء الجرأة وقوة الشخصية، ويخترن رجالهن بأنفسهن، بل ويتقدمن عليهم في الجرأة الجنسية، فابن قيم الجوزية يروي

لنا عن امرأة،كان حبيبها لا يرغب إلا حديثها فقط، فقالت أبياتا يندى لها جبين الأدب العربي (نزهة الجلساء:٣٧-٣٩). واعتراف ليلى الأخيلية في حبها لتوبة دليل على ذلك:

فيا توبَ مَا فِي العيشِ خَيرٌ ولا نَدى يعدُّ وقد أمسيتَ في تُربِ نفنفِ(الديوان:٦٥)

وقيل لمية بنت عاصم بعد موت صاحبها قابوس، ما كان يضرك لو أمتعته بوجهك قبل موته. قالت: منعني خوف العار وشماتة الجار، فقد كان بقلبي منه أكثر مما كان بقلبه (السيوخي، د.ت:٥٦)، ويمكن أن نسجل نصوصاً كثيرة عذرية وصوفية وفلسفية تتعامل مع الحب والعشق بصيغات خيرة وشريرة، تشكل توازناً من حيث كونهما مبعث الانفعال؛ إذ كما ينفعل الرجل للمرأة تنفعل الأنثى للرجل(نصر،١٩٧٨: ١٢٥)، وما دام الحب شعوراً، والغزل تعبيراً، فالذي تقتضيه حقائق الأشياء أن يكون الشعور سابقاً على التعبير؛ليكون الغزل كفنٍ متأخر عن الحب كما خفة (الطباع،د.ت:٦) وهذه الحرية لم تمنعها من الإفصاح عن حبها للرجل منذ الصغر، تقول ليلى الأخيلية:

ألمْ تَرَ أهلِي يَا مغير كأنَّما يَفيئون باللوماءِ فيك الغنائما
ولو أنَّ أهلِي يعلمون تميمةً من الحبِّ تَشفى قلَّدوني التمائما(القالي:٢/٨٧)

روى صاحب الأمالي عن الزبير بن بكار أن أبا بكر محمد بن أبي الأزهر سأل إحدى النساء، أي الرجال خير؟ قالت:

خَيْر الرجالِ المرهقونَ كَما خَيرُ تِلاعِ الأرضِ أوطؤُها

قال: فأي النساء خير؟ قالت: التي في بطنها غلام، تحمل على وركها غلام، يمشي وراءها غلام.(القالي، د.ت:١٠٧)، وهذا مطابق لقوله عليه السلام، تزوجوا الودود الولود، وهو من جانب أو من آخر له علاقة مباشرة بالحب والجنس، فأسلوب المجاهرة بالعشق وما له علاقة به كان مقبولا من النساء في العصر الأموي، وربما أن الذي منح هؤلاء النسوة هذه الحرية، أن بعض أولي الأمر كان يسمع ويشجع الشعر الغزلي، فكان ابن أبي عتيق، وهو حفيد أبي بكر الصديق، أقوى سند لشاعرية عمر ابن أبي ربيعة، وكان عبد الله بن عباس يحفظ الشعر الغزلي ويردده، وبخاصة شعر ابن أبي ربيعة، حتى عمر بن عبد العزيز كان يحفظ شعر الأحوص الأنصاري، وهو في جملته غزلي، ومن ثم حكم عليه بالنفي، وكان يرفض أن يعيده، بسبب هذا الشعر (الأصفهاني،١٩٩٧ :٤/٢٧٦)، وربما ساعد على ذلك أيضا، بعض القصص التي رويت عن تقدير بعض الناس للعاشقين ومحاولة مساعدتهم، روى صاحب الأمالي فقال " إن عمر ابن أبي ربيعة نظر إلى فتى من قريش يكلم جارية في الطواف، فعاب عليه، فذكر أنها ابنة عمه، فقال: ذلك أشنع لأمرك، فقال: إني أخطبها إلى عمي، وإنه زعم أنه لا يزوجني حتى أصدقها أربعمائة دينار وأنا غير قادر على ذلك، وذكر من حاله وحبه لها وعشقه، فأتى عمر عمه فكلمه في أمره، فقال: إنه مُملق وليس عندي ما أحتمل صلاح أمره، فقال عمر: وكم الذي تريد منه؟ فقال: أربعمائة دينار، قال: فهي عليّ، فزوجه منها، ففعل ذلك " (ابن قتيبة،١٩٦٠:١٩٦٤).

كان لسليمان بن عبد الملك جارية، أحبها غلام، فكتب إليها شعراً، يخبرها فيه أنه رآها في المنام تعانقه، فأجابته:

خَيراً رأيتَ وكُلّ ما عاينتُهُ ستَنالُهُ منّي برغمِ الحاسدِ
أنّي لأرجُوا أن تكونَ مُعانقِي فتبيتُ منِي فوقَ ثديٍ ناهدِ
وأراكَ بينَ خلاخِلي ودمالجِي وأراكَ بينَ مراحِلي ومجاسِدي

فبلغ ذلك سليمان فزوجهما (بشير يموت، ١٩٣٤ :٢٠٢).
وذكر التميمي في كتابه امتزاج النفوس " أن معاوية ابن أبي سفيان اشترى جارية من البحرين، فأعجب بها إعجاباً شديداً، فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها:

وفارقُه كالغُصن يهتزّ في الثَّرَى طَرِيراً وسيماً بعدَ ما طَرّ شَارِبُهْ

فسألها فقالت: هو ابن عمي، فردها إليه وفي قلبه منها (الزرعي، د.ت:٤٠٨)، وعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الصالح، كان يصل بين القلوب،عندما يتصل به خبر أحد العشاق الذين لا تساعدهم الظروف على الاجتماع بحبيباتهم(السّراج:١٠٨/١، ٢٨٣/٢).
وقد قيل شعر كثير فيه تعريض واضح بالعشق والحب والدفاع عنه، وقد كن يتباهين بالتعامل مع هذا الجانب، كقول عشرقة المحاربة،حين هرمت وتذكرت ما كان في ماضيها:

جَريتُ مع العشاق في حَلبَةِ الهَوَى ففقتُهم سَبقا وجئتُ عَلَى رسلِي
فَما لَبسَ العشاقُ من حُلل الهوَى ولا خَلَعوا إلاّ الثيابَ التي أبلِي
ولا شَرِبوا كأساً من الحبِّ مُرةً ولا حُلوةً إلا شرابهم فَضلِي(بشير يموت،١٩٣٤: ١٠٢)

إن ميل المرأة للرجل أو العكس قضية فطرية، وجدت مع وجود الاثنين على الأرض، وكانت هذه القضية تشغل فكر الخليفة معاوية الذي رسم — إن صحت الرواية —خطة؛ لأن ابنه يزيد عشق امرأة متزوجة، هي أرينب بنت إسحاق، وكانت زوجة لابن عمها عبد الله بن سلاّم القرشي، وكان معاوية يجله ويقدره، ولكنه مع ما يرى من توله يزيد بحب أرينب، حاول أن يغري عبد الله بتطليقها؛ لتخلو ليزيد، غير أن الأمور تمضي على غير ما رسم، فيتزوجها الحسين بن علي- رضي الله عنهما- ويعيدها إلى زوجها مرة أخرى (ابن الجوزي:٣٤/١-٤١)، وهناك قصة مشابهة لمعاوية في مصارع العشاق (السّراج:١٣/٢-١٧)، واحتمال أن تكون هذه القصة أو جزء منها غير صحيح وفيه زيادة لأسباب سياسية مثل:: ذم دهاء الأمويين، وتأكيد فضل الهاشميين، ومع هذا ستبقى فكرتها وأحداثها وشخصياتها حقيقة واقعة؛ لإظهار كيف شغلت أمور الحب حياة هؤلاء السادة، ولم يكن غريباً أن تشغل نساءهم بأكثر مما شغلتهم، فلدى المرأة من الدواعي ما يدفعها إلى العناية بنفسها. تقول ليلى الأخيلية في رثاء توبة:

أقسَمْتُ أَرثِي بَعْد توبةَ هالكاً وأحفلُ من دارتْ عليه الدوائرُ
لعمركَ ما بالموتِ عارٌ عَلَى الفَتَى إذا لم تُصبهُ في الحياةِ المعايرُ
ومَا أحــد حيًّا، وإن كانَ سالماً بأخلد ممن غيبته المــقابرُ
وَمن كانَ مما يحدثُ الدهرُ جَازِعاً فلا بدّ يوماً أن يرَى وَهوَ صابرُ
وَليسَ لذِي عيشٍ عَن الموتِ مقصرٌ وليسَ عَلى الأيامِ والدهرِ غابرُ
وَلا الحيّ مما يحدثُ الدهرُ معتبٌ ولا الميتُ إنْ لم يصبر الحيَّ ناشرُ
وَكلّ شَبَابٍ أو جديد إلى بِلَىً وكُل امرئٍ يوماً إلى الله صائرُ
وَكــل قرينـــــي ألفة لتفرق شتاتا، وإن ضنَّا وطال التعاشرُ
فَــلا يبعــدنكَ اللهُ حياً وميتــاً أخا الحربِ إن دارت عليه الدوائرُ
فآليتُ لا أنفك أبكيكَ ما دَعــت عــلَى فننٍ ورقاءَ أو طارَ طائرُ
قَتيلُ بني عوف، فيا لهفتا لَــهُ فما كنتُ إياهـــم عليه أحاذرُ

ولَكنـــــّـما أخشَى عليه قبيلة لها بــدروب الروم بادٍ وحاضرُ (الديوان:٤٠-٤٣)

إن هذه الجرأة في القول، وهذه الحرية تجتمعان معاً، لتقدما لونا جديدا في شعر رثاء العصر الأموي، وما عهد العرب أن ترثي المرأة صاحبها، ولكن رثاء توبة ليس من هذا الضرب، إنه شاعر عاشق، وهي في رثائها له تعرف عنه هذا، ولكنها تتأول بما يجعله بطلاً، أو على الأقل، ليس مذنباً ولا غريباً في سلوكه، ثم تسكت عن وجه مهم،وهو دافعها لهذا الرثاء، لا نكاد نجده في مراثي نساء العصر الأموي، وكأن ليلى الأخيلية ترثي توبة لإسلامه، أو لما يذكرها شخصه أو مصرعه من قيم الإسلام المتحنة بفقده، إنها تواري غرابة الصلة وغرابة الدافع وكأن رابطة الدين،هي كل ما يجمع بينها وبينه، وكأن هذه الرابطة توجد له عليها حقاً!!

إن هذا الرثاء لا يستطيع أن يعلن المسوغ الحقيقي له، وهو حبها له وحبه لها، وقد تهربت واختفت وراء المعاني الدينية، لكنها لم تستطع أن تخفي علاقتها به، وتتبعها لنشاخه، وما أحست به من المفاجأة حين قتله من كانت لا تخشاهم عليه، بل وكانت تعترف للخليفة بحبها لتوبة، دخل عبد الملك بن مروان على زوجته عاتكة بنت يزيد فرأى عندها امرأة بدوية أنكرها، فقال لها: من أنت ؟ فقالت: أنا الوالهة الحرَّى ليلى الأخيلية (ابن خيفور،١٩٠٨: ١٥٧)، فهي تعترف بعشقها الكبير أمام الخليفة ولا تخفي عشقها وحبها لتوبة.

وتعترف المرأة الأموية العاشقة بكل صراحة بأنها لو خيرت بين أبيها وعاشقها، لاختارت عاشقها وفضلته:

ثُكلتُ أبي إنْ كنتَ ذقتُ كريقهِ سُلافا ولا ماء من المزنِ صافيا
وأقسمُ لَو خيرت بينَ فِراقِـــهِ وبينَ أبي أنْ لاخترت أنْ لا أَبا ليا (شاعرات العرب)

وقد شكل الحب والعشق جوهر العلاقة بين الرجل والمرأة في المنهج التحليلي الفرويدي بشكل خاص،وعلى ضوئه فسرت الكثير من عقد الحياة النفسية، وإن جاء ذلك بطريقة مبالغ فيها أحياناً كثيرة، من خلال نظرات خاصة، مثل النظرة إلى " الأسلحة المدببة، والأدوات الطويلة الصلبة، وجذوع الأشجار والقصب، تمثل العضو المذكر، بينما تحل الخزائن والعلب والعربات والمدافئ محل العضو المؤنث" (خربيشي،١٩٧٧: ٧-٨)، ثم من جهة تتبع الشرور التي كرستها الثقافات البشرية جسد المرأة، وخاصة الجنس غير الشرعي، الأمر الذي نمط الصور السلبية التي أنتجت فيها هذه العلاقة، رغم أنها كينونة إنسانية الجمال واللذة والخصب.(شكري،١٩٧١: ٦ وما بعدها)، في حين نجد أن الفلسفة القديمة حاولت أن تعلل الحب والعشق بنظريات ميتافيزيقية، نجد أن المحدثين حاولوا أن يعللوا الحب تعليلاً مبنياً على علم النفس، فالمحدثون يقولون " إن الحب حالة نفسية تستمد معينها من الغرائز والدوافع، نظاماً مرتباً في الانفعالات، تتحد في عاخفة واحدة قوامها تعلق بالشيء المحبوب وسرور لوجدانه وانقباض لفقدانه، ولا تزال تتطور حتى تبلغ بالحب مراتب يشعر فيها بدوام الشوق واللهف إلى المحبوب في حالتي حضوره وغيابه، ويتمنى أن لو تمكن أن يتحد به، فلا ينفصل عنه، فيصبح الاثنان واحداً، والروحان روحا " (الطباع:١٢-١٣)، وقد أشار الشاعر العباسي ابن الرومي إلى هذا المعنى، فقد عايش هذه النظرية واقعا، فهو يشير في أبياته إلى هذا الاتحاد، فيقول:

أُعانقُها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ إليها وَهَل بعدَ العناقِ تَدانِ
وألثمُ فاها كَي تزولَ حرارةٌ فيشتدّ ما ألقى من الهَيمانِ
كأنّ فؤادي ليسَ يشفِي غليله سِوى أنْ يَرَى الروحين يجتمعانِ (الديوان،١٩٩٤: ٤٠٦/٣)

وقصة الحارث بن خالد المخزومي والى مكة لعبد الملك بن مروان مع عائشة بنت طلحة معروفة - وكان قد أحبها -، وكانت ذات جمال ومكانة وشرف، وحجت عام ولايته، فأرسلت إليه تسأله أن يؤخر الصلاة، حتى تفرغ من طوافها، ففعل، فأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه، فعزله عبد الملك وكتب إليه يؤنبه فيما فعل، وقبلة العاشق- فيما روى صاحب روضة المحبين - لم يحرمها الله، أورد صاحب روضة المحبين، قال ابن سفيان بن مرخية:

إنّا سَألنا مَالكاً وقريـــــنُهُ لَيثَ بَنَ سعد عن لثامِ الوامقِ
أيجوزُ؟ قالا: والذي خَلَقَ الورى مَا حَرَّم الرحمنُ قُبلة عَاشقِ(الزرعي:١٢٥)

وأرى أن ذلك تجاوز للدين الإسلامي، وبخاصة أن الموضوع فيه مجال جيد للسمر والزيادة ودغدغة المشاعر. ولأم البنين قصص كثيرة في ميادين الحب والجرأة الأدبية،فقالت مرة لعزة صاحبة كثير: " أخبريني عن قول كثير:

قَضَى كُل ذي دَينٍ فَوفّى غَريمَهُ وعزة ممطولِ مَعنى غريمها

أخبريني ما ذلك الدين ؟ قالت: وعدته قبلة فحرجت منها، قالت أم البنين: أنجزيها وعليّ إثمها (ابن قتيبة،٩٢/٤).

وقد ربط الفكر الإنساني قديما وحديثا المرأة بالأرض، فهناك كثير من الكنايات، كنيت بها المرأة؛ لتعيد ارتباخها إلى حد كبير من الناحية اللغوية بالأرض والطبيعة، ومن هذه الكنايات في اللغة العربية: الحرث والفراش والعتبة والقارورة والبقرة الوحشية والظبية والقلوص والماء والنخلة والمها (البرقوقي،١٩٤٥: ١٠)،وعودتها إلى الطبيعة فكرة أسطورية قديمة، تجعل المرأة خامة طبيعية (رضا،١٩٧٩: ٢٣-١٠٩)، وخاصة في مجال علاقة الرجل الجنسية بها.

أما على مستويي الفلسفة والتصوف فقد كان الحب- كما يرى هيرقليطس- مشاركاً للعقل في تكوين الأرضية الموحدة والعميقة بين النفوس المستيقظة (عبد المنعم،١٩٨٣: ١٥-١١٦). وفي قول الفليسوف الكندي: " المحبة علة اجتماع الأشياء" (مكندي،١٩٥٠: ١٥-١١٦). والحب عند أفلاخون" تأمل دائم في الجمال تهتدي به الروح إلى المعاني الإلهية" (محمد هلال:٢١٣)، وهو من وجهة نظر سقراط، "ليس جميلاً وليس خيراً، إنما هو بين الاثنين، إنه شيطان والشيطان وسط بين الرباني والإنساني" (اليسوعي،١٩٩١: ١٥١)، وهو كما يقول دنيس:" الطريق الذي يصعد بنا عن طريق الانجذاب درجة بعد درجة، نحو ينبوع كل ما هو موجود بعيداً عن الأجسام والمادة" (دينس:١٧٢).

أما المسار الديني لروايتي الخلق والخروج من الجنة في الرواية الإسلامية، فهو أن الله سبحانه وتعالى خلق الرجل والمرأة من نفس واحدة، ولم تفرق آيات الخلق بين الجنسين، ومن ذلك" هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء" (سورة النساء:آية ١).

ومن هنا يربط العاشقون الكلفون الذين إذا هدهم الوله أحياناً بين الحب والدين، فيمزجون عشقهم بمشاعر دينية، فيلجأ العاشق إلى مسجد أو مكان ديني يستريح فيه، أو ينطلق منه، وربما التجأ لآية قرآنية أو حديث شريف يشجعه على الصبر أو يلتمس فيه مبررا لعلاقته بالمحبوب وجعلها مقبولة لا حرج فيها " (الآلوسي، ١٩٩٩: ٣٢٥)، فقيس يفضل ليلى على فتيات البشر كتفضيل ليلة القدر على بقية ليالي رمضان، يقول:

لَقد فضلتُ ليلى على الناس كَالتي عَلى ألفِ شَهر فُضلت ليلةُ القدر (الديوان،١٩٩٧: ٨٠)

وهنا، نلاحظ، تأكيد- بصورة مباشرة- التساوي في الخلق من نفس واحدة بين الرجل والمرأة، وأنه بالتالي ليس هناك مجال لإحالة المرأة إلى نفس أخرى (شيطانية) مغايرة للنفس التي خلق منها الرجل، أو إحالتها إلى الخلق من الضلع الأعوج حقيقة أو مجازاً، أو إحالة خلقها إلى ظروف دونية.

الخاتمة

إن عشق المرأة للرجل وتغزلها فيه في العصر الأموي كان عشقا بسيطا عفويا وكان يأتي من خلال الغريزة الفطرية التي تتمتع بها كل أنثى على وجه الكون.

لم يكن هذا العشق مبتذلا، وصل بهنّ إلى درجة الانحلال والخلاعة وكذلك لم يكن له أبعاد فلسفية أخرى؛ لأن العرب كانت تحكمهم الفطرة، فلا يمكن أن نفسر هذا العشق بالاعتماد على أقوال أفلاخون وأرسطو وفلسفاتهم؛ لأننا عندها نحمل هذه القضية أكثر مما تحتمل، فالعرب بشكل عام كانوا بسيطين.

هذه العاخفة، عاخفة المرأة تجاه الرجل، لا ينكرها أحد، ولكن المرأة الأموية توفرت لها ظروف اجتماعية وحضارية لم تتوفر لأمها أو لجدتها، فأخذت من هذه الحضارة بنصيب، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الجرأة والحرية في هذا الجانب تختلف من أنثى لأخرى.

ومن الملاحظ أيضا في هذه القضية، قلة النساء الشاعرات اللواتي صرحن بعشقهن صراحة وبجرأة، وأهم هؤلاء الشاعرة ليلى الأخيلية.

كثير مما قيل على ألسنة النسوة كان من النساء الجواري وليس الحرائر، وربما هذا الذي جعل بعض المؤرخين يصف العصر بأنه عصر التحرر الاجتماعي.

المراجع:

القرآن الكريم

الأصبهاني، محمد،١٩٨٥: الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط٢، الأردن.

الأصفهاني،أبو الفرج، ١٩٩٧: الأغاني، تحقيق مكتب دار إحياء التراث العربي،بيروت، و ط ساسي، د. ت.

أمين، أحمد، فجر الإسلام، ١٩٣٣، ط الاعتماد، ط ٣.

الأنطاكي، داود، ١٢٩١هـ، تزيين الأسواق، ط دار الطليعة.

الألوسي،١٩٩٧، نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب، ط دار العلم، بيروت.

بشيريموت، ١٩٣٤: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بيروت،ط١.

البرقوقي، عبد الرحمن،١٩٤٥: دولة النساء، القاهرة.

بدوي، عبده، ١٩٨٧: دراسات في الشعر الحديث، ط١، الكويت.

الجاحظ، ١٩٩١: المحاسن والأضداد، تحقيق محمد سويد، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الجاحظ، ١٩٦٤: رسائل الجاحظ، ط الخانجي.

حرب، علي، ١٩٩٣: نقد النص، الدار البيضاء.

خليف، يوسف، ١٩٦١: الحب المثالي عند العرب، ط دار المعارف، مصر.

الدوري، عوض، ٢٠٠١: مصادر دراسة الشعر العربي في العصر الأموي، ط دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١.

راغب، نبيل، ١٩٨٨: موسوعة الفكر الأدبي، ج٢، القاهرة.

الكندي، يعقوب ١٩٨٠ : رسائل الكندي الفلسفية ترجمة محمد عبدالهادي، القاهرة.
ابن الرومي، ١٩٩٤: ديوانه، شرح أحمد حسن بسج، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١.
رضا، عمر، ١٩٧٩: المرأة في القديم والحديث، بيروت.
الرّفاء، السري، د.ت : المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، تحقيق مصباح غلاونجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
رؤبة، ١٩٧٩: ديوانه، وليم بن الورد، ط ١، ط بيروت.
زيدان،جورجي، ١٩٣٦: تاريخ آداب اللغة العربية، ط ٣.
السيوطي، د.ت، نزهة الجلساء في أخبار النساء، دار القرآن، القاهرة.
ابن السراج، ١٩٥٨: مصارع العشاق، ط ١، ط دار صادر، بيروت.
شمس الدين، ابن قيم الجوزية، ١٩٣٩: أخبار النساء، ط التقدم المصرية.
ضيف، شوقي، ١٩٥٩: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط ٣.
الطباع، عبد الله، د.ت،الحب والغزل في الجاهلية والإسلام،.د.ط.
طرابيشي، جورج، ١٩٧٧: شرق وغرب، بيروت.
ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ،١٩٠٨: بلاغات النساء، القاهرة.
عبدالله، محمد حسن، ١٩٨٧: صورة المرأة في الشعر الأموي، ط ذات السلاسل، الكويت.
عمر بن أبي ربيعة، ١٩٦٠: ديوانه، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، ط ٢، مصر.
عفيفي، عبدالله، ١٩٢١: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ط دار إحياء الكتب المصرية، ط١، مصر.
عبيد، مهدي، ١٩٨٢: قضايا الحياة المعاصرة عند الرجل والمرأة، بيروت.
عبدالله، محمد حسن، ١٩٨٠: الحب في التراث العربي، الكويت. مصر، ١٩٦٠.
ابن عبد ربه، ١٩٤٦: العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرون، القاهرة.
القالي، ١٩٩٦: كتاب الأمالي، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت.
ابن قتيبة، ١٩٦٦: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاكر، ط دار المعارف، مصر.
ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، ١٩٦٠: عيون الأخبار، ط دار الكتب المصرية.
كثير، ١٩٩٤: ديوانه، شرح عدنان دروبش، ط دار صادر، ط ١، بيروت.
ليلى الأخيلية، ١٩٩٨: ديوانها، تحقيق واضح عبد الصمد، ط١، ط دار صادر، بيروت.
ابن منظور، لسان العرب، ط دار صادر، بيروت، د. ت.
المغربي، ابن أبي حجلة، د.ت، ديوان الصبابة على هامش تزيين الأسواق، ط دار صادر،بيروت.
المرزباني، ١٩٦٠: معجم الشعراء، تحقيق عبدالستار أحمدة فراج، ط مصر.
مجنون ليلى، ديوانه، ١٩٩٧: تحقيق يوسف فرحات، ط بيروت، ط ٢.
مكندي، يعقوب، ١٩٥٠: رسائل الكندي الفلسفية،ج١، ترجمة محمد عبد الهادي، القاهرة.
نصر، عاطف، ١٩٧٨: الرمز الشعري عند الصوفية، بيروت.
هيرقليطس، ١٩٨٣: جدل الحب، ترجمة مجاهد عبدالمنعم، بيروت.
هلال، محمد غنيمي، د.ت : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، ط دار المعارف، مصر.
اليسوعي، جيمس، ١٩٩١: سيرة أفلاطون، بيروت.